Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

صورة الإسلام ونبيه في الذاكرة الغربية

عرض ونقد

The image of Islam and its prophet in western memory

Presentation and criticism

إبراهيم زلافي ، zelafi brahim
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، مخبر الشعرية الجزائرية.
Brahimzelafi@yahoo.fr

تاريخ الاستلام : 2020-12-11 **تاريخ القبول :** 2021-04-11

ملخص:

واجه الإسلام ونبيه –صلى الله عليه وسلم-منذ ظهوره الكثير من التحديات، وكان من أشدها وقعاً الهجمات المغرضة التي شنها بعض المستشرقين الحاقدين، حيث شكلت حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته مادة دسمة للبحوث الاستشراقية بمختلف مشاربها.

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن بداية اهتمام المستشرقين بالإسلام ونبيه، وخلفياتهم الفكرية التي انطلقوا منها، والطرق التي اعتمدوها في بحوثهم، والصورة المسيئة التي رسمتها الكنيسة للنبي -صلى الله عليه وسلم-في العصور الوسطى، وتناولها المستشرقون في العصر الحديث، ثم نشرتها وسائل الإعلام الغربي في وقتنا الحاضر. مع الوقوف عند بعض الكتابات المنصفة. والمعلوم أن أصل هذه الصورة المسيئة ظهرت هي العصور الوسطى محاولة من الكنيسة لمحاربة الإسلام، ثم نمت واتسعت وصدقتها العقول وتوارثتها الأجيال المتعاقبة.

كلمات مفتاحية: الاستشراق، الإسلام، السيرة النبوية، محمد، شبهات المستشرقين.

Abstract :

Since its emergence, Islam and its Prophet - May God bless him and grant him peace - faced many challenges, the most severe of which were the malicious attacks launched by some malevolent orientalists, Where the life and biography of the Prophet, may God bless him and grant him peace, constituted a rich material for Orientalist research in all its aspects. This study seeks to reveal the beginning of the orientalists 'interest in Islam and its Prophet, their intellectual backgrounds from which they started, the methods they adopted in their research, and the offensive image that the Church drew of the Prophet - may God bless him and grant him peace - in the Middle Ages. It was addressed by the orientalists in the modern era, and then it was published in the Western media nowadays. With standing at some of the fair literature. It is known that the origin of this offensive image was the middle Ages, an attempt by the Church to fight Islam, and then grew, expanded, believed, and inherited by successive generations.

Keywords: Orientalism, Islam, The prophetic biography, Mohammed, Orientaries' suspicions.…

1. مقدمة:

مرَّت قرون على ظهور ما يسمى حديثاً بحركة الاستشراق، هذا المصطلح أو اللفظ الحديث النشأة، الذي هو ترجمة للمصطلح الفرنسي Orientalisme [1]، والذي ظهر حديثاً في

المعاجم اللغوية الغربية، إذ دخلت كلمة مستشرق في اللغة الإنكليزية عام 1779م، واستعملت كلمة الاستشراق في معجم اللغة الفرنسية عام 1838م[2]. وقد انصبَّ اهتمام حركة الاستشراق على كل صغيرة أو كبيرة مما كانت عليه حياة شعوب الشرق، وما خلفته من حضارات وتراث. وخُصَّت هذه الحملة الحضارة العربية الإسلامية باهتمام أكبر كونها غطت معظم بقاع المعمورة، وكان الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم من أهم محاور الدراسة والاهتمام والطعن وتلفيق الشبهات من طرف هذه الحركة.

الإشكالية المطروحة تتمثل في البحث عن أصل هذه الصورة المسيئة،أين ومتى ظهرت؟ وكيف انتشرت؟ أما الفرضيات فتتمثل في: ظهورها في الغرب إبان العصور الوسطى، وكان إما للدفاع عن المسيحية، أو الطعن في الإسلام، أو وضع سد منيع بين القارئ الغربي والقرآن. أما الأهداف فتتمثل في إبطال هذه الشبهة وكشف زيفها وفق منهجية العرض والنقد.

أقوال المستشرقين حول الإسلام ونبيه:

لم تسلم السيرة النبوية كما لم يسلم القرآن الكريم من شبهات المستشرقين وكتاباتهم، فقد أتاحت لهم وفرة المصادر والوسائل والحوافز من طرف المؤسسات الدينية والسياسية، أن يؤلفوا في موضوعات مختلفة عن الإسلام ورسوله والقرآن الكريم، وينشروا كتاباتهم بكل الوسائل والطرق، من إلقاء المحاضرات في الجامعات، وعقد المؤتمرات والندوات الإعلامية، وإصدار الكتب والمجلات والموسوعات. وقد تعددت مناهجهم واختلفت طرق دراساتهم للسيرة النبوية، فجاءت نتائج بحوثهم متباينة نتيجة تشكيكهم وطعنهم في الكثير من القضايا الثابتة تاريخيا في كتب السنة النبوية، واستند بعض المستشرقين في دراساتهم على الروايات الضعيفة، أو الغير موثقة التي لا أصل لها في كتب السير المعتمدة، وفي المقابل جاءت دراسات البعض منهم موضوعية بعيدة عن التعصب العرقي والديني. ويمكن أن نقسم المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام ونبيه إلى فريقين على صعيد المناهج والنتائج، والغرض من هذا هو عرض الشبهات ونقدها بأقوال المستشرقين أنفسهم:

أ-**الفريق الأول**:

قامت بحوثه على معايير غير علمية، بعيدة عن الموضوعية والأمانة العلمية، تمخضت عنها نتائج غير مرضية لا يقبلها العقل. وغذَّت هذه الكتابات الروح السلبية، التي أثارتها الكنيسة الغربية منذ القديم، فانطلق هؤلاء الكتاب من وجهة نظر عدائية، كان الغرض منها تشويه صورة النبي –صلى الله عليه وسلم-عند الغربيين حتى ينفروا منه ومن الإسلام. فجدير بنا ألا نتوقع من المستشرقين – وهم على غير ديننا-كما يقول زكريا هاشم: «أن يتحدثوا على صاحب الدعوة الإسلامية – مهما كانوا منصفين- كما نتحدث نحن المسلمين. بل حسبهم وهذا قصارى جهدهم- هذه الخلافات المزرية التي أشيعت عن محمد في العالم المسيحي... إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال " ولتر سكوت " و" اسكندر ديماس " وذلك لأن هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم. أما المستشرقون فلم يتمكنوا أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة، فصوروهم حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري»[3]. واستمر هذا الفريق في رسم صورة مسيئة للنبي عبر العصور المتوالية التالية:

***-في القرون الوسطى**:

لم ترض اليهود والنصارى على الإسلام ونبيه، ولم يكن ذلك بسبب جهلهم للإسلام، فقد عاش اليهود في المدينة المنورة وعايش المسيحيون الإسلام في الشام، وعرفوه عن كثب، فكانت حربهم ضد الإسلام نتيجة معرفة حقيقية به، خلقت حقدا متناميا ضد الإسلام ونبيه خوفاً من تأثيره على معتنقي اليهودية والمسيحية. ومن رجال الدين المسيحيين الأوائل الذين دافعوا عن المسيحية وحاربوا الإسلام الراهب منصور بن سرجون التغلبي المدعو القديس يوحنا الدمشقي[4] (676-749م) Jean de Damas، الذي تزعم حركة الجدل الديني ضد الإسلام، لما توفر له من معرفة باللغة العربية مكنته هو وآخرون من الاطلاع على القرآن الكريم في لغته الأم. وانتهى في جدله ضد الإسلام والقرآن الكريم إلى عدة آراء لخصها في كتابه "ينبوع المعرفة" وتتلخص هذه الآراء في أن الإسلام هرطقة مسيحية، وأن القرآن الكريم قد تم تأليفه من كتب العهدين القديم والجديد، وأن النبي –صلى الله عليه وسلم-قد تعلم على يد الراهب بحيرى[5]. وقد شكلت مؤلفاته

مرجعاً مهماً لكتاب اللاهوت في القرون الوسطى، حتى أن القديس الإيطالي توما الإكويني Thomas d'Aquin (1225-1274) كان يستشهد به في مؤلفاته[6].

لقد أنتجت الكتابات الأولى للمسيحيين في الشرق صورة في غاية التشويه والإساءة للنبي – صلى الله عيه وسلم-وسيرته، وكانت كتاباتهم في مرحلة بداية عهد الاستشراق تهدف إلى إقامة سد منيع بين الإسلام والمسيحيين حتى لا يفكروا في الاطلاع على الدين الجديد، وأوهموهم بأنه تأليف من اليهودية والمسيحية قام به رجل أريوسي اسمه محمد، نجح في خداع قومه بعد ادعائه نزول الوحي عليه[7]. ثم عمل القساوسة والرهبان في الغرب على نقل هذه الصورة المشوهة التي رسمت للرسول في القرون الوسطى، وقد اتسمت كتاباتهم بالكذب، وقد أدت هذه الكتابات المشبوهة إلى صرف الغرب عن دراسة الإسلام. واستمر كره الغرب للنبي – صلى الله عليه وسلم – طيلة القرون الوسطى، وانغرست هذه الصورة السيئة في ذاكرة الجيل الجديد من مفكرين ورجال دين وسياسيين وإعلاميين إلى يومنا هذا.

وتتضح الصورة التي رسمت للإسلام ونبيه في القرون الوسطى من خلال كتاب "الإسلام والغرب Islam et Occident" للمستشرق البريطاني دانيال نورمان Daniel Norman (1919-1992)، الذي يصف فيه الحالة النفسية والعقائدية للإنسان الأوربي الذي كان في فزع من ترقبه ليوم القيامة، والذي أكدته وحددت أمائره كتابات آباء الكنيسة المستندة إلى بعض نذر العهد القديم وإنجيل يوحنا، ورأى الشراح واللاهوتيون منذ القرن التاسع الميلادي أن النبي محمداً والإسلام يدخلان فيها. وهكذا فقد بدأ النظر منذ حقبة مبكرة إلى النبي محمد باعتباره المسيح الدجال، الأمارة الرئيسية لليوم الآخر، وكانت انتصارات الإسلام (الدنيوية) تغذي هذا التصور الأولي للمسيح الدجال، وتجعل من غير المعقول معقولاً[8]. هذا التشويه الذي مارسه رجال الكنيسة وزرعوه في العقل المسيحي الأوربي، وإلصاق الصفات المشينة بالإسلام ونبيه، ووصفه بالشهوانية والمادية وتدنيس الكنائس وتحويلها إلى معابد للشيطان، هذه الشبهات هي التي جعلت الانسان الأوربي ينفر من الإسلام ونبيه، ويكن لهما العداء على مرّ القرون.

كما يكشف المستشرق الفرنسي أرنست رينان Ernest Renan (1823-1892) عن تحامل رجال الدين المسيحي على النبي – صلى الله عليه وسلم-، فقد أَلَّف هؤلاء عن الإسلام ونبيه قصصاً خيالية لا يصدقها عقل، ونسجوا له تاريخاً غريباً يقول عنه هذا المستشرق:« إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمداً كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له، ولقد وصمه دانتي بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده، وعند غيره مرادفاً لكلمة كافر أو زنديق، ولقد كان محمد في نظر كتاب العصور الوسطى تارة ساحراً وتارة أخرى فاجراً شنيعاً ولصاً يسرق الإبل، وكاردينالاً لم يفلح في أن يصبح بابا فاخترع ديناً جديداً أسماه الإسلام لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزاً لكل الموبقات وموضوعاً لكل الحكايات الفظيعة »[9]. لقد سمم رجال الكنيسة وأتباعهم العقل الأوربي بهذا السيل العرم من الشبهات والصور المشينة، التي ألصقوها بالإسلام ونبيه، والتي صارت بمرور الأيام سداً بينهم وبين الإسلام لا يمكن لأحد نقبه أو هدمه.

***-في العصر الحديث:**

لم تتغير نظرة الغرب للإسلام ونبيه – صلى الله عليه وسلم- في هذه الحقبة، فقد انتقلت تلك الصورة المسيئة من جيل العصور الوسطى إلى مخيلة جيل العصر الحديث، وتشبعت تلك الصورة بالخيال، فقد رسموا للرسول –صلى الله عليه وسلم- صورة تحمل الصفات الكريهة والمشينة وتتماشى مع أيديولوجيتهم، وذوق رجل الشارع الميال إلى كل ما هو غريب. إذ كانوا يعتبرون النبي – صلى الله عليه وسلم-ساحراً وشخصاً فاسداً وزعيم شعب فاسد[10]. كما يوضح المؤرخ الإنكليزي ريتشارد سوذرن Richard Southern (1912-2001) معالم هذه الصورة المسيئة والتي طبعت في المخيلة الأوربية وتناقلتها الأجيال الأوربية جيل بعد جيل، حيث يقول: «كانت الصورة التي تكونت لدى الغربيين عن طبيعة الإسلام وشخصية نبيه في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي نتاج الانتصار الأول للفرسان الصليبيين، وقد جمعت أجزاء هذه الصورة في جنوبي فرنسا؛ وأسهم في تركيبها في الغالب الفرسان العائدون، والكهنة والرهبان ممن لم يعرفوا جبهات القتال عن كثب. لقد كان هؤلاء يزوّدون المخيلة الأوربية أمام مواقد النار في الشتاء بطرائف عن الشرق

والإسلام والنبي. ووصلت هذه الصورة الخيالية المتكونة إلى المدارس والأديرة الوسيطة بعد وضعها في شكل مدرسي يشجع على قبولها. وأدّى ذلك في النهاية إلى انطباع شعبي مروّع وعجيب في قدرته على البقاء، ومقاومته لكل المعلومات الصحيحة ونصف الصحيحة التي توالت فيما بعد»[11]. ومن بين هؤلاء المتحاملين على شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم-نجد المستشرق الإنكليزي سيمون أوكلي Simon Ockley (1678-1720) الذي وصف النبي – صلى الله عليه وسلم-بأبشع الصفات حيث يقول: «رجل خبيث جداً وماكر وأن ما كان يبديه من شمائل طيبة كانت مجرد أمر ظاهري يخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع»[12].

وقد نسج المستشرقون المتحاملون على النبي – صلى الله عليه وسلم – روايات كثيرة في أقصى درجات الغرابة والخيال تناقلتها أجيال المستشرقين في كتاباتهم، نجد المستشرق الفرنسي الطبيب غوستاف لوبون (1841-1931) Gustave Le Bon صاحب كتاب "حضارة العرب- La civilisation des Arabes" الذي أسهب في اختلاق الشبهات وقلب الحقائق، والطعن في الإسلام ونبيه، فقد جاء في قوله : «وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء...إن محمداً كان مصاباً بالصرع، ...»[13].

والمعروف تاريخياً أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يعرف عنه في الجاهلية أنه استسلم لذاته وعواطفه، أو كان يلهو كما يلهو الفتيان وقد كان ذلك مباحاً في الجاهلية، بل عرفته قريش بالأمانة والعفاف وطهر النفس. أما زوجاته في الإسلام فلكل واحدة منهن كان لزواجه بها سبب. ويرد عباس العقاد على ادعاءات هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا تشويه سمعة النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله: «يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الإسلام هو تشويه سمعة النبي – صلى الله عليه وسلم- وتمثيله لأتباعه في صورة معيبة، لا تلائم شرف النبوة، ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح»[14].

لقد زعم المستشرق الإنكليزي مونتجومري وات Watt Montgomery(1909-2006) صاحب كتاب "محمد في المدينة Muhammad at Medina " أن النبي كان يعمل على صياغة ديانة تشبه الديانة اليهودية. وأن الذي علمه هو ورقة بن نوفل. حيث يقول: «إنه من البديهي أن محمداً قبل الهجرة وبعدها كان يميل لصياغة ديانته على شكل الديانة اليهودية، وتشجيع أتباعه في المدينة على الاحتفاظ بالطقوس اليهودية التي تبنوها[15]. وجاء في قوله كذلك: «جعلت الهجرة محمداً على اتصال أوثق باليهود، وقد حددت علاقات النبي باليهود، منذ ذلك العهد، تطور الدين الإسلامي فيما بعد. ومرت فترة كان فيها الدين الجديد ينقل عن اليهودية... فكان هدفه أن يقيم ديناً موازياً لليهودية، ولكنه مرسل للعرب خاصة»[16].

حاول المستشرق الانكليزي دفيد صامويل مرجليوت David Samuel Margoliouth (1858-1940) إنكار الوحي والرسالة وإشاعة شبهة أن النبي كانت له عيون تأتيه بالأخبار من أنحاء المعمورة، ولم يكن وحي يوحى إليه من الله «عيون النبي أتت إليه بالأخبار وجاءته بالحوادث بسرعة مذهلة، فليست نبوءات محمد معجزات دالة مثبتة لنبوته»[17].

إن محاولة المستشرقين إثارة الشكوك حول القرآن الكريم، ونفيهم أن يكون الوحي من عند الله، تمهيدا منهم لنفي النبوة عن الرسول – صلى الله عليه وسلم -. ما هي إلا نظرة عدائية اتجاه الإسلام ونبيه – صلى الله عليه وسلم -. وفي هذا المجال يصف شوقي أبو خليل نظرة المستشرقين إلى النبوة بقوله: «المستشرقون ينظرون إلى نبوة محمد نظرة عادية مجردة من الصوت الإلهي، وما ذلك إلا من قبيل التعصب الديني المبني على عداء سياسي، إنهم ينكرون أن يكون محمد ذا نبوة صحيحة، بينما هم يقرون بهذه النبوة نفسها لجميع أنبياء بني إسرائيل»[18]. وإذا كان المستشرقون ينكرون نبوة محمد حسداً من عند أنفسهم، فإن شهادة القرآن الكريم على نبوة الرسول – صلى الله عليه وسلم - قائمة إلى يوم الدين. لقد أتى الله رسوله أعظم آية عقلية بيانية باقية إلى قيام الساعة وهي القرآن الكريم وقد أخبرنا الله عزّ وجل بأن هذا القرآن من عنده وليس باستطاعة أحد أن يأتي بمثله، فلا الجن ولا الإنس ولو اجتمعا كلاهما معاً.

***-في الحقبة المعاصرة:**

لم تجد الكيانات الغربية بعد الحروب الصليبية والغزو الاستعماري إلا الغزو الثقافي أفضل وسيلة تحارب بها هاجس الخوف من الإسلام، وتسعى بكل الوسائل لإيجاد صورة مشوهة للإسلام ونبيه وإظهاره بمظهر لا يليق بمكانته. فالصورة المسيئة

التي رُسمت لنبي الإسلام، والتي روج لها الإعلام الغربي، ما هي إلا امتداد لتلك الصورة المشوهة التي رسمها رجال اللاهوت والقساوسة في العصور الوسطى للإسلام ونبيه، وسخر لها بعض المستشرقين كل الوسائل لتثبيتها في الذاكرة الغربية. أما اليوم فقد أصبحت هذه الصورة المسيئة مادة إعلامية تتناولها وسائل الإعلام الغربية بما تملكه من قدرات تقنية للترويج لها. تتلخص معالم الصورة المشوهة التي ترسمها وسائل الإعلام الغربي للنبي – صلى الله عليه وسلم – وتسقطها على كل العرب في إظهار العربي على أنه:

1-كافر لا دين له.

2-شهواني لا يهمه إلا الجنس.

3-إرهابي خطير.

4-ماكر ومخادع.

لقد قامت الصحيفة الدانمركية يولاندس بوسطن(Jyllands-Posten) في 30 سبتمبر 2005 بنشر مقال بعنوان "وجه محمد " Muhammeds ansigt وفيه 12 صورة كاريكاتورية للرسول، ومثلته بأبشع الصور. وفي 10 يناير 2006 قامت الصحيفة النرويجية Magazinet، وصحيفة Die Welt وصحيفة Berliner Zeitung الألمانية وصحيفة La Stampa الإيطالية وصحيفة El Periodico الإسبانية وصحيفة Volkskrant الهولندية بنشر نفس الصور على صفحاتها. وفي 01 فبراير 2006 قامت الصحيفة الفرنسية France Soir بنشر الصور الكاريكاتيرية وأضافوا صورة جديدة من عندهم، وسلكت صحف أخرى في أوربا نفس السلوك بإعادة نشر الصور الكاريكاتورية بحجة حرية التعبير[19]. وها نحن اليوم نصحو على نشر هذه الصور المسيئة مرة أخرى في صحيفة شارلي إيبدو Charlie hebdo الفرنسية، التي أصرت على إعادة نشر هذه الصور يوم الثلاثاء الفاتح من شهر سبتمبر 2020.

عرض عبد القادر طاش في كتابه " صورة الإسلام في الإعلام الغربي" بعض النماذج من هذه الصورة المشوهة في الكتب المدرسية الفرنسية، فقد ورد فيها بأن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان شخصاً مستبداً برأيه في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأنه كان فقيرا ثم تزوج وأصبح يشعر بالأمن، وخلال سفره التقى باليهود والنصارى، وكان يكرس أوقات فراغه للتأمل فحصلت له رؤى على طريقة الأنبياء، وقرر التبشير بالرب كما لو كان رباً خاصاً بالمسلمين دون سواهم[20]. وهي نفس الصورة التي تكررت في جميع كتب الأطوار الدراسية في معظم دول أوربا.

إن الصورة المسيئة التي صنعها القساوسة في العصور الوسطى والمستشرقون بعد الحروب الصليبية ووسائل الإعلام الغربي في الزمن المعاصر تعد حاجزا نفسيا قوياً يعزل الإنسان الغربي ويبعده عن فهم الإسلام والتعرف على مبادئه، وتدل كثير من الشواهد والحوادث التي وقعت بأن هذه الصورة المشوهة أسهمت في تصاعد روح العداء بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية. إن المتتبع لآراء هذا الفريق من المستشرقين حول شخصية النبي –صلى الله عليه وسلم-يجد أنه لا يريد من وراء ذلك إلا زرع بذور الشك في نفسية القارئ بمختلف الوسائل وشتى السبل، فينتقي المصادر غير الموثوقة، ويحرف النصوص والجمل والعبارات ليستشهد بها، وينسب الأقوال إلى غير أصحابها، وهي استراتيجية يتبعها بعض المستشرقين لكي يظن القارئ أن هذه الدراسات تتصف بالعلمية والدقة.

ب-الفريق الثاني:

انتهج هؤلاء الموضوعية والتدقيق العلمي في بحوثهم حول السيرة النبوية، فاعتمدوا الروايات الصحيحة المحققة والأحداث التاريخية الثابتة، فجاءت نتائج بحوثهم موضوعية. ومن بين هؤلاء المستشرق الفرنسي **إدوارد مونتيه** Edouard Montet (1856-1927): «كان محمد نبيا صادقاً كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه، كما كانتا متمكنتين في أولئك الأنبياء أسلافه، فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الإلهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يحدثان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والأحوال الروحية التي من بابها»[21].

يقول المستشرق الانكليزي اللورد هدلي Baron Headley(1855-1935) المعروف بالشيخ الفاروق بعد اعتناقه

الإسلام: «والأنبياء والرسل قوم اصطفاهم الله واختارهم وفضلهم على الناس وبعثهم إليهم مبشرين ومنذرين كما يقول القرآن الكريم: ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل ﴾ وقد تحققتُ بعد طول البحث والاستقراء أن محمداً نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام لم يكن مدعيا ولا دجالا كما يدعيه خصومه، ولكنه كان رسولا نبياً، جاء برسالة إلهية صادقة لا ريب فيها هدى للمتقين أوحى الله بها وكلفه بتأديتها، فجاءت مخففة لصرامة أحكام التوراة ومكملة لكتاب المسيح »[22].

كما يؤكد الحقيقة نفسها المستشرق الأمريكي **سنكس** Snks (1831-1883) صاحب كتاب "ديانة العرب" في قوله: « وقد كان محمد نبي الإسلام يؤكد بأنه تلقى معارفه من الملأ الأعلى وقد أجمع معاصروه على الاعتراف بأن معارفه الخاصة أصغر من أن تجعله يدرك ويكتب هذه التعاليم الحكيمة المشحون بها هذا القرآن، تلك التعاليم التي رقَّت عقول الملايين من الناس، ولا تزال ترقي شعوباً متأخرة، وذلك بإشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية، ولن تمضي سنوات قليلة حتى تصبح إفريقيا كلها دائنة للإسلام دين محمد عليه السلام» [23]. وهذه شهادة حق من مستشرق على أن القرآن الكريم ليس تلفيقاً من كتب العهدين القديم والجديد، وإنما هو كلام الله عز وجل، الذي لا يرق إلى مستواه كلام البشر، وبذلك عجز معاصروه أن يأتوا بمثله، فقد شُدت إليه عقول الناس وقلوبهم، وانتشر في بقاع الأرض بانتشار الإسلام.

يقول المستشرق الأسكتلندي توماس كارليل Thomas Carlyle (1795-1881): «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين أكذوبة وخدعة؟ ... هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يخلق ديناً ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟ ... وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر... كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق»[24].

يقول المستشرق الانكليزي بنيامين بوسورت سميت Benjamin Bosworth Smith (1794-1884) «إنه من المستحيل لأي شخص درس حياة وشخصية الرسول العربي العظيم، وعرف كيف عاش وكيف تعلم، ألا ينحني احتراماً لهذا الرسول المبجل القوي، الذي هو واحد من أعظم رسل الله...»[25]. كما يعترف المستشرق عالم اللاهوت هانز كونغ بنبوة الرسول – صلى الله عليه وسلم -قائلاً: «...أن النبي محمداً نبي مرسل، يحمل الهداية للبشرية أجمع...وأن الإنجيل بَشَّرَ به قبل التحريف...»[26].

ونجد المستشرق الفرنسي ألفونس **إتيان ديني** Alphonse-Étienne Dinet (1861-1929) الذي أعلن إسلامه سنة 1927 بالجامع الجديد بمدينة الجزائر، وسمي **نصر الدين ديني**، وطلب أن يدفن بمدينة بوسعادة. فقد دافع عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلاً: «إن أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجموننا بالأباطيل، ويحاربوننا بالمفتريات، وإذا نحن شئنا أن نحصي أكاذيبهم علينا كانت صفحة هي أسود الصفحات في تاريخ التعصب، يشترك فيها أعداء الإسلام، قديمهم وحديثهم، سواء منهم العلماء، والرواد والقساوسة، ورجال الحكومات، والكتاب أمثال بيرون، وبلجراف، ومرجليوث، والقسيس كانتربري، والأب لامانس»[27].

كما كان للمستشرقة الإيطالية **لورا فيشيا فاغليري** Laura Veccia Vaglieri (1893-1989) موقف بارز في الدفاع عن الإسلام وعن الرسول – صلى الله عليه وسلم – من خلال كتابها "الدفاع عن الإسلام" Apologia dell'Islamismo الذي صدر عام 1952م، حاولت هذه المستشرقة أن تبطل كل التهم والشبهات التي صاغها بعض المستشرقين حول الإسلام ونبيه – صلى الله عليه وسلم – وتعلن بأن الإسلام عبر عصوره قدم للبشرية عدداً من الأمثلة على التسامح الديني، فقد ضمن لليهود والنصارى حرية العبادة والمعتقد، وحافظ على مؤسساتهم وصانها، فقد أعطى الرسول نفسه ضمانات إلى نصارى نجران بأن مؤسساتهم المسيحية سوف تصان، وسار على نهجه الخلفاء من بعده. فبالإضافة إلى هذه الحرية، تولى اليهود والنصارى أصحاب المؤهلات العلمية المناصب الحكومية في الدولة الاسلامية. وأن

الحقد أعمى أقوى أعداء الإسلام وحالوا رَمْيَ النبي –صلى الله عليه وسلم-ببعض التهم المفتراة، وأصروا على تصويره بأبشع الصور، لكنهم لم يجشموا أنفسهم عناء التساؤل كيف استطاع أن يصمد أمام التهديد ويتحمل إهانات قومه، ويواصل دعوته، ويؤمن به العدد الكبير من الناس، إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟، وتؤكد **لورا فاغليري** أنه حتى بين الغربيين يكاد ينعقد الاجماع على أن صدق محمد كان عميقاً وأكيداً [28].

لقد أُلِفَ حول السيرة النبوية العديد من المُؤَلفات من قبل العديد من المستشرقين من جميع أنحاء العالم وبشتى اللغات، ومن بين هذه المؤلفات نجد:

* كتاب " **النبي محمد في حياته ودينه** " للمستشرق الألماني فايل سيمون Well .S (1808-1889) نشر سنة 1841م في ثلاثة مجلدات. ولد فايل في ألمانيا ثم سافر إلى فرنسا ومنها إلى الجزائر ثم مصر، وتعلم اللغة العربية على يد كل من محمد عياد وأحمد التونسي، ولما رجع إلى بلاده عين أستاذاً في جامعة فرانكفورت، ومن كتبه: " التوراة في القرآن " نشر عام 1835م، " تاريخ الشعوب الإسلامية من محمد إلى سليم الأول " صدر عام 1866م[29].

* كتاب **أسطورة محمد في الغرب** للمستشرق الفرنسي أرنست رينان Ernest Renan (1823-1892)، نشر عام 1889م. أقام في لبنان مدة عامين ثم تجول في مصر وفلسطين، ولم يكن ضليعاً في اللغة العربية حسب قوله: Je suis toujours resté médiocre « arabisant »

كما عبر عن شعوره اتجاه الإسلام بقوله:

«Je ne suis jamais entré dans une mosquée sans une vive émotion, le dirai-je ? sans un certain regret de n'être pas musulman »[30]

* كتاب " **محمد ونشأة الإسلام** Mohammad and the Rise of Islam " للمستشرق الإنكليزي مرجليوت دافيد صامويل D.S. Margoliouth (1858-1940) صدر سنة 1905م، عن دار النشر The Knickerbocker,New York and London. أتقن مرجليوت اللغات الشرقية، شغل منصب أستاذ في جامعة سنة 1889، وكان عضواً في المجمع العربي في دمشق. من آثاره: " نصوص القرآن " صدر سنة 1925م، " القرآن " سنة 1939م[31].

* كتاب " **محمد في مكة** Muhammad at Mecca" للمستشرق الإنكليزي مونتجومري وات Montgomery Watt ، صدر عام 1953م عن دار النشر Clarendon Press, Oxford ، والكتاب الثاني بعنوان " **محمد في المدينة** Muhammad at Medina " صدر بعد ثلاث سنوات من صدور الكتاب الأول، أي عام 1956م عن دار النشر Oxford University Press . يعد مونتجومري عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا، من آثاره: " عوامل انتشار الإسلام " و" الإسلام والجماعة الموحدة "[32].

* كتاب: **محمد: سيرة للنبي** Muhammad: A Biography of the Prophet " للكاتبة الأمريكية كارين آرمسترونغ، Karen Armstrong الذي صدر عام 1992م عن دار النشر في نيويورك Harper-Collins Publishers والذي ترجمه إلى العربية محمد عناني، وفاطمة نصر عام 1998، نشرت في سلسلة كتاب سطور. يضم كتاب آرمسترونغ مدخلاً، وعشرة فصول، ويحتوي على خرائط، ومخططات. تسرد الكاتبة مزاعم الغرب والصورة التي رسمها للإسلام ونبيه، للنبي والتي حملت كل وصف أسطوري لا تستسيغه العقول: «كان علماء الغرب يهاجمون الإسلام باعتباره عقيدة تجديف في الدين، ويصفون محمداً بأنه المدعي الأكبر، ويتهمونه بأنه أنشأ ديناً يقوم على العنف، ويمتشق السيف لفتح العالم. وأصبح اسم محمد (الذي حُرف إلى ماهوميت) بمثابة البعبع الذي يُخيف الناس في أوربا... وأصبحت هذه الصورة الزائفة للإسلام تمثل إحدى الأفكار الراسخة في أوربا... ولكنه من الخطأ أن نظن أن الإسلام دين يتسم بالعنف أو التعصب... بل إن الإسلام دين عالمي ولا يتصف بأي سمات عدوانية شرقية أو معادية للغرب»[33].

وتستمر الكاتبة في الكشف عن الأساطير التي نسجتها المخيلة الكنسية الغربية وصدقتها العقول الساذجة، حيث تقول: «وقد زعمت الأساطير في شرحها لنجاح محمد أَنَّهُ ساحر دبّر «معجزات» زائفة حتى يخدع العرب السذج، ويدمّر الكنيسة في إفريقية والشرق الأوسط. وتتحدث واحدة من الحكايات عن ثور أبيض أرهب الناس، وظهر -آخر الأمر-، والقرآن وهو الكتاب المنزّل الذي جاء به محمدُ العربَ يتهادى بين قرنيه على نحو معجز. وقيل: إن

محمدًا قد درّب حمامة على التقاط حبات بازلاء من أذنيه حتى يبدو وكأن روح القدس يهمس فيهما. وقد فُسِّرت تجاربه الصوفية بالزعم بأنه كان مصابًا بالصرع، والذي كان يفضي -في ذلك الوقت -إلى القول بأنه رجل مسكون بالجن. وجرى الحديث عن حياته الجنسية، ونسب إليه كل شذوذ معروف لدى الرجال، وقيل: إنه شدّ الناس إلى دينه بتشجيعهم على الانقياد إلى أحطّ غرائزهم. ولم يكن هناك أي شيء صادق في مزاعم محمد، فهو دجّال عامد خدع كل شعبه تقريبًا»[34].

تقول: «إننا ننتج باستمرار رواسم جديدة للتعبير عن كراهيتنا، التي يبدو أنها متأصلة للإسلام. فقد كنا في السبعينات مسكونين بصورة شيخ النفط الغني غنًى فاحشًا؛ وفي الثمانينات بصورة آية الله المتعصب؛ ومنذ مسألة سلمان رشدي أصبح الإسلام دينًا يهدر دم الإبداع والحرية الفنية... المشكلة الغربية هي أن محمدًا قد نُظِرَ إليه على أنه نقيض للروح الدينية، وعدو للحضارة المهذبة. وربما كان علينا أن نحاول بدلاً عن ذلك أن ننظر إليه على أَنَّهُ رجل روح، استطاع أن يجلب السلام والحضارة لقومه»[35].

كما تعرضت كارين آرمسترونغ، Karen Armstrong إلى طبيعة العلاقة القائمة بين الإسلام والغرب هذا الأخير الذي يُكِن الكراهية والحقد للإسلام ونبيه، تقول الكاتبة: «فإننا في الغرب بحاجة أن نخلِّص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة. ولعلى شخص محمد يكون مناسباً للبدء، فقد كان رجلا متدفق المشاعر ذا شخصية مركبة... وقد أسس دينا وموروثاً حضارياً لم يكن السيف دعامته، على الرغم من الأسطورة الغربية، ودينا اسمه "الإسلام" ذلك اللفظ دو الدلالة على السلام والوفاق»[36].

*كتاب: "الرسول –حياة محمد- The Messenger: The Life of Mohammed للمستشرق الإنكليزي الكولونيل رونالد فيكتور كورتيناي بودلي Ronald Victor Courtenay Bodley (1892-1970)، على الرغم من بعض التناقضات في المعلومات والمزاعم التي وردت في صفحات كتاب، وسواء كان ذلك عن قصد أو جهل، فإنه ينفي نفياً قاطعاً ما تداولته ألسنة المستشرقين من أن محمداً سرق معلوماته من كتب العهدين القديم والجديد، حيث جاء في قوله ما يفند أمانة النبي –صلى الله عليه وسلم- وصدق دعوته: «الزعم بأنه قد سرق الانجيل زعم باطل، فما رآه أبداً، والقول باطلاعه على ترجمة الانجيل الناقصة التي قام بها ورقة لا يضع أمامه إنجيلاً كاملاً ليراه، وحتى هذه الترجمة لم يرها، فإن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد موت محمد بقرون»[37].

الخاتمة:

لقد عرضت في هذا المقال بعض من الصور المسيئة التي تناقلتها فئة من المستشرقين من جيل إلى جيل، محاولة بناء سد منيع بين الغرب والإسلام، وطرحت مقابل هذه المزاعم دراسات لفئة أخرى من المستشرقين الذين قادتهم موضوعيتهم في البحث إلى الإقرار بعظمة الإسلام ونبيه، فمنهم من بقي على ديانته مثل فاغليري وتوماس كارليل وبودلي، ومنهم من اعتنق الإسلام إتيان دينيه واللورد هيدلي.

توصلت إلى عدة نتائج منها:

أشير في الأخير إلى جملة من المراجع التي اعتمدتها من أجل التدقيق في المعلومات، وإلى أهم النتائج التي تم التوصل إليها وهي:

-أن أصل هذه الصورة المسيئة هي العصور الوسطى محاولة من الكنيسة لمحاربة الإسلام.

-أن هذه الصورة نمت واتسعت وصدقتها العقول وتوارثتها الأجيال المتعاقبة.

-توجد فئة من المستشرقين حاولت بناء سد منيع بين الغرب والإسلام.

-توجد فئة أخرى من المستشرقين الذين قادتهم موضوعيتهم في البحث إلى الإقرار بعظمة الإسلام ونبيه، فمنهم من بقي على ديانته مثل فاغليري وتوماس كارليل وبودلي، ومنهم من اعتنق الإسلام إتيان دينيه واللورد هيدلي.

-الحاجة الملحة للتعريف بالإسلام ونبيه لإزالة جهل الآخر.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.

2 -أصلان عبد السلام، قراءة نقدية في كتب السيرة النبوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1989م.

3-بودلي، الرسول –حياة محمد، تر: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، 1945.

4-توماس كارليل، الأبطال، تر: محمد السباعي، المطبعة المصرية بالأزهر، مصر، ط3، 1930.

5 -جوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط2، 1981.

6 - ريتشارد سوذرن، صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى، تر: رضوان السيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1984.

7 -سهيل إدريس وجبور عبد النور، المنهل، دار العلم للملايين، لبنان، 1990.

8- شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، ط4، دار الفكر، 1980.

9-عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دار الكتاب العربي، بيروت،1966.

10 -عبد الرحمن بدوي، دفاع عن محمد(ص)، تر: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، دت.

11 -عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993.

12-عبد السلام البكاري، الصديق بوعلام، الشبهة الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، دار الأمان، الرباط، ط1، 2009.

13-عبد القادر طاش، صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط2، ،1993.

14 -عبد الله الفادي، هل القرآن معصوم، مؤسسة ضوء الحياة، النمسا، ط1، 1994.

15 -عبد المتعال محمد الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، مكتبة وهبة، القاهرة، دت.

16 -كارين آرمسترونغ، سيرة النبي محمد، تر: فاطمة نصر ومحمد عناني، القاهرة، 1998.

17- لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، تر: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1981.

18 - محمد أمين حسن، المستشرقون والقرآن الكريم، دار الأمل، الأردن، ط1، 2004.

19-محمد حلمي، علماء الغرب يدخلون الإسلام، النهضة العربية للصحافة، القاهرة، ط1، 1994.

20-محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية والحضارية، دار المعارف، القاهرة، 1998.

21 -محمد فهمي عبد الوهاب، محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، تونس.

22-مونتغومري واط، محمد في المدينة، تر: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت.

23 -نصر الدين ديني، محمد رسول الله، تر: عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دت.

24 -هشام جعيط، أوربا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت،1980.

الهوامش:

[1] - سهيل إدريس وجبور عبد النور، المنهل، دار العلم للملايين، لبنان، 1990، ص722.

[2] - أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص25.

[3] - عبد المتعال محمد الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، مكتبة وهبة، القاهرة، دت، ص ص49-51.

[4] - شوقي أبو خليل، هكذا يكتبون تاريخنا: يوحنا الدمشقي أنموذجاً، دار الفكر، دمشق، 2008، ص31.

[5] - محمد عبد الله الشرقاوي، الاستشراق، القاهرة، 1992، ص37.

[6] - فتح الدين محمد، مدخل إلى الاستشراق المعاصر وعلم الحديث، مكتبة الملك فهد، الرياض، 1433هـ، ص23.

[7] - أصلان عبد السلام، قراءة نقدية في كتب السيرة النبوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1989م، ص108.

[8] - ريتشارد سوذرن، صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى، تر رضوان السيد، معهد الإنماء العربي،ب يروت،1984، ص11.

[9] - عبد الرحمن بدوي، دفاع عن محمد(ص)، تر: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، دت، ص5.

[10] - هشام جعيط، أوربا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت، 1980، ص197.

[11] - ريتشارد سوذرن، صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى، ص66.

[12] - محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية والحضارية، دار المعارف، القاهرة، 1998، ص34.

[13] - جوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط2، 1981، ص142.

[14] - عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دار الكتاب العربي، بيروت،1966، ص254.

[15] - مونتغومري واط، محمد في المدينة، تر: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت، ص305.

[16] - المرجع نفسه، ص462.

[17] - شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، ط4، دار الفكر، 1980، ص 60.

[18] - المصدر نفسه، ص18.

[19] - موقع: https://ar.wikipedia.org/wiki/ 2020/02/06، الساعة 15سا.

[20] - عبد القادر طاش، صورة الإسلام في الإعلام الغربي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط2، 1993، ص 79.

[21] - محمد أمين حسن، المستشرقون والقرآن الكريم، دار الأمل، الأردن، ط1، 2004، ص203.

[22] - محمد فهمي عبد الوهاب، محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، تونس، ص 36.

[23] - المرجع نفسه، ص 41.

[24] - توماس كارليل، الأبطال، تر: محمد السباعي، المطبعة المصرية بالأزهر، مصر، ط3، 1930، ص ص 54-58.

[25] - محمد حلمي، علماء الغرب يدخلون الإسلام، النهضة العربية للصحافة، القاهرة، ط1، 1994، ص 32.

[26] - المصدر نفسه، ص 92.

[27] - نصر الدين ديني، محمد رسول الله، تر: عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دت، ص37.

[28] - لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، تر: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1981، ص ص 34-38

[29] - عبد السلام البكاري، الصديق بوعلام، الشبهة الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، دار الأمان، الرباط، ط1، 2009، ص364.

[30] - عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993، ص 315.

[31] - المصدر نفسه، ص 546.

[32] - عبد السلام البكاري، الصديق بوعلام، الشبهة الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، ص362.

[33] - كارين آرمسترونغ، سيرة النبي محمد، تر: فاطمة نصر ومحمد عناني، دار سطور، القاهرة، 1998، ص ص 18-19.

[34] - المرجع نفسه، ص ص 40-41..

[35] - المرجع نفسه، ص ص43-44.

[36] - المرجع نفسه، ص 393.

[37] - بودلي، الرسول –حياة محمد، تر: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، 1945، ص84.